حضوضى

Hadhaudhâ

١ـ تعريف حضوضى عن السلف

يقول الزمخشري في كتاب الجبال والامكنة والمياه : حضوضى موضع وقيل جبل في البحر (١) .

ويقول ياقوت في معجمه الجغرافي : حضوضى جبل في الغرب كانت العرب في الجاهلية تنفي اليه خلعاءها . وقال الحازمي : حضوض بغير الف جزيرة في البحر . ويقول ايضا الحضوض نهر كان بين الحيرة والقادسية (٢) .

وفي القاموس للفيروزابادي : حضوضى وحضوض : جبل في البحر كانت العرب تنفي اليه خلعاءها . والحضيض القرار في الارض . والحضوضى : البعد والنار . والحضوضاة : الضوضاة (٣) .

وفي الاغاني(٤) لابي الفرج الاصبهاني قصة نفي ابي محجن الثقفي الى جزيرة في البحر . يقال لها : حضوضى. بحراسة ابن جهراء وهربه منه على ساحل البحر ثم التحاقه بجيش سعد بن ابي وقاص في حرب القادسية . وسجنه بامر الخليفة عمر بن الخطاب (رض) الذي كان نفاه لادمانه شرب الخمر على رواية ، ولمحاولته التطلع الى امرأة من الانصار يقال لها شموس كان هو بها على رواية اخرى . وقد احتال ابو محجن وهو في حبسه حتى خرج الى الجيش المحارب يوم ارماث وهو اول يوم من ايام القادسية . وبعد ان ابلى بلاء حسنا عاد الى سجنه ووضع القيد في رجله . وقد نقل لنا الاصبهاني هذه الابيات التي قالها حين تمكن من الهرب من ابن جهراء وهي :

الحمد لله نجاني وخلصني من ابن جهراء والبوصي(٥) قد حبسا

(١) كتاب الجبال والامكنة والمياه ص ٥٠

(٢) معجم البلدان طبع ليبسك ج ٢ ص٢٨٩ وطبع مصر ج٣ ص ٢٩٦ ولعل «في الغرب» مصحفة عن «في البحر» .

(٣) القاموس المحيط والقابوس الوسيط ج ٣ ص٣٤٠ من طبعة المطبعة الميمنية بمصر

(٤) الاغاني طبعة الساسي ج٢١ ص ١٣٨

(٥) البوصي ضرب من السفن معرب بوزي الفارسية

من يجشم البحر واليوصي مركبه الى حضوضى فبئس المركب التمسا
ابلغ لديك ابا حفص مغلغلة عبد الاله اذا ما غار او جلسا
اني اكر على الاولى اذا فزعوا يوما واحبس تحت الراية الفرسا
اغشى الهياج وتغشاني مضاعفة من الحديد اذا ما بعضهم خنسا

٢ — تحقيق حضوضى في نظرنا

وفي تخوم البادية بالقرب من الطريق الذاهب من الحجاز الى العراق بين الازرق (١) والقريات (٢) موضع يعرف الى اليوم بحضوضى وهو يقع على بعد خمس عشرة ساعة بالسيارة من عمان عاصمة حكومة الشرق العربي ويوصل اليه عن طريق الازرق في شرقي عمان ثم من الازرق يسير القاصد اليه بتعريج الى الشمال فيلقى في وسط سهل افيح بحيرة صغيرة مستديرة او كالمستديرة يعلو وجهها طبقة بيضاء كالشيد المروب ، يظن الذين تمكنوا من الدنو منها ان هذه الطبقة هي مما تكون من ذلك الماء الاسن الذي لا يعرف من اين ينبع فهي من هذا القبيل بطيحة من البطائح اكثر منها بحيرة من البحيرات .

وفي وسط هذه البحيرة بناء قائم الى الآن اشبه شيء بالمباني والقلاع الرومانية التي تكثر في تخوم البادية مثل قصر زيزاء ، وقصر الزرقاء ، وهذا البناء مغمور من جميع جوانبه بماء البحيرة التي لا يجرؤ على الدنو منها احد لاعتقاد البدو بانها تبتلعهم او تلحق بهم الاذى ويقدر احد الذين وصلوا الى هذه البحيرة (٣) ان مساحتها لا تزيد على اربعة آلاف متر مربع . ويقول ان حول شاطئها عظاما ورفاتا هي عظام او رفات بعض الحيوانات مثل الظباء والوعول وما ماثلهما مما يدلنا على ان هذه الحيوانات قد هلكت بسبب شربها من ذلك الماء الاسن في تلك الصحراء القاحلة التي لا كلأ فيها ولا ماء ، او ان ما ينتشر حولها من

(١) الازرق ماء في طريق حاج الشام دون تيماء وهو الحد الفاصل بين الشرق العربي وبين سورية اليوم

(٢) القريات من وادي القرى الى تيماء اربع ليال ومن تيماء الى القريات ثلاث او اربع ليال والقريات هي دومة وسكاكة والقارة وتعرف اليوم بقريات الملح

(٣) هو «السيد مصطفى وهبي التل» من وجوه اربد عجلون ومن موظفي حكومة الشرق العربي سابقا

الروائح الكريهة والجراثيم القتالة هي التي اودت بهذه الحيوانات فاوردتها موارد الهلكة .

ويؤكدون انه لايخيم بالقرب منها اوبجوارها البعيد قبيلةما لاستيلاء الرعب على الناس من مضارها وهي عندهم مضرب المثل .

يدلك على ذلك ماقاله شاعرهم النمر بن عدوان شيخ قبيلة العدوان المعروفة يصف بها حالة نفسه عند وفاة قرينته قبل ثلاثة ارباع القرن :

طير الينا بمخلبه كبن شغر بي وبين الثريا والكواكب رقا بي

وبمثل سلك العنكبوت انحدر بي وبقاعة حضوضى ياودبدي هوى بي

وانت ترى ان هذا الشعر البدوي غاية في الرقة والانسجام . لا تنقص قيمته الشعرية عما اتى به امير الشعراء شوقي بك في قصيدته انس الوجود اذ يقول :

فتراها ما بين صخر وبحر ملكة في السجون فوق حضوضى

٣ـ توافق الخواطر في ضرر الحضوضين

بقي علينا ان ننظر هل هذه هي حضوضى التي عناها العرب وكانت منفى خلعائهم؟ ان نفرة الناس من حضوضى اليوم كنفرتهم منها بالامس وتخوفهم منها اكثر من تخوف ابي محجن الثقفي فهذه الحقيقة تمهد لنا سبيل الظن بانها هي المعنية وقد مر بنا ان ابا محجن هرب منها الى القادسية في العراق وهي على ما علمت في الجادة السابلة اليه من الحجاز وقد تكون اذذاك ذات بوصي يمخر في مائها ويصل الى البناء القائم في وسطها .

ولاتستغربن ابدا تسمية العرب لمثل هذه البحيرة الصغيرة بالبحر وللبناء القائم في وسطها بالجزيرة فمثل هذا الماء في وسط جزيرة العرب يستحق ان يدعى بحرا وكل ما قام في وسطه من اليابسة حري بان يسمى جزيرة ، فاننا نراهم يسمون الانهار بحارا ويستوحشون من رؤية البحار وركوبها بله يحاذرون الدنو من الانهار الكبيرة كما كان يفعل الخليفة عمر بن الخطاب وقصته مع عامليه عمرو بن العاص في مصر وسعد بن ابي وقاص في المدائن لما كتب اليهما «ان لاتجعلوا بيني وبين المسلمين ماء» قصة مشهورة .

وسنبقى على الاعتقاد بان حضوضى هذه هي التي عناها العرب الى ان يقوم من الادلة والبراهين مايثبت وجود غيرها والله اعلم .

حيفا (فلسطين) عبدالله مخلص

رأينا في حضوضى

كنا في سابق العهد درسنا هذه المسألة وعالجناها وبحثنا عن موادها فكانت النتيجة مايأتي بعض تحقيقه .

قول الزمخشري : موضع وقيل جبل في البحر كلام جلي واضح لايحتاج الى شرح او تاويل .

واما قول ياقوت : « جبل في الغرب كانت العرب في الجاهلية تنفي اليه خلعاءها» ففيه بعض الاشكال. لكن اذا عرفت ان المراد بالغرب هنا الشام ولاسيما ما كان منها في الجنوب الغربي زال عنك كل اشكال . اما ان الغرب هو الشام فقد نص عليه في النهاية . قال في مادة غرب : لا يزال اهل الغرب ظاهرين على الحق . قيل : اراد بهم اهل الشام لانهم غرب الحجاز اه . قلنا : ليست الشام في غرب الحجاز بل في شمال غربيها لكنهم يتجوزون في مثل هذا التعبير ومثله كثير عندهم . ولعل الصواب لان الشام في غرب مساكن العرب لا في غرب الحجاز وعلى كل حال: كان العرب يسمون الشام غربا وان اختلفت اسباب هذه التسمية.

اذن معنى كلام ياقوت جبل في الغرب : جبل في الشام . والشام تطلق عند العرب على سورية وفلسطين معا ، فتكون حضوضى في ارض الشام .

وقوله: كانت العرب تنفي اليه خلعاءها . فهذا يعني انه غير بعيد عن بلادهم بل داخل في ارضهم . وكيف يجوز لهم ان ينفوا رجلا الى بلاد ليست في حكمهم؟

على ان الذي في معيار اللغة : تنفي اليه خلفاءها (بالفاء) وهو خطأ ظاهر ، اذ لم يكن خلفاء في الجاهلية كما اننا لم نسمع بخليفة نفي اليه بعد الاسلام . فالتصحيف ظاهر لاشبهة فيه .

واما قول ياقوت نقلا عن الحازمي : حضوض بئير الف جزيرة في البحر فليس فيه ما يضاد قولهم جبل في البحر ، اذ ما من جزيرة في البحر إلا هي

جبل او سلسلة جبال اذا كانت الجزيرة كبيرة اوسلسلة جزر .

واما قول الفيروزابادي : حضوضى وحضوض : جبل في البحر ... والحضوضى البعد والنار . ففيه مايهدينا الى معرفة حقيقة حضوضى

لاجرم ان حضوضى لغة في حضوض وزيادة الالف في الاخر معروفة اشهر من ان تذكر . وقوله : البعد والنار . يذكرنا بما يقابله عند اليونانيين بالحبس او الحضو ولاسيما لانه ورد في احدى نسخ القاموس الموجودة عندنا اذتنص على ما يأتي (البعد في باطن الارض والنار) وهو عند اليونانيين Hadès, hadou ويريدون به بلوطن Pluton الاله الروماني وهو اله ما تحت الارض وباطنها او بعبارة اخرى اله وادي الجحيم او اله مقر الموتى . وكان يكرم في عدة مدن مثل تريزينس Trézène وتريفيلية Triphylie واوبنتس Oponte وفي عدة بلدان من فلسطين وتخوم البادية التي بين العراق والحجاز وبالاخص في المواطن العميقة التي تتصاعد منها الروائح الخبيثة . فكان ينفى اليها كبار الاثمة والخونة واعداء المدن او اعداء الوطن وكان يحتفل بعيده في ١٢ من قلنداس تموز اي في ما يوافق العشرين من حزيران الغربي الحالي .

وقد توسع اليونانيون في معنى كلمة حضوض حتى اطلقوها على كل موطن يكون مهلكة لمن يذهب اليه . وهذا كله يقوي رأي حضرة صديقنا الكاتب عبدالله مخلص ولاسيما اذا عرفنا ان مادة (حضض) تقارب مادة (حضر) او (حضأ) من جهة ، ومادة (خضض) من جهة اخرى، فاذا اعتمدنا على ما ورد في معنى هذه المواد عرفنا ان الموطن المسمى بحضوض اوحضوضى هو مكان يوصل اليه «خوضا في مائه» الضحضاح، وهو اوّل حار كانه «يحضو حضوا» تتصاعد منه الابخرة المتعفنة فينشأ عنها مايسمى « بالنار التائهة » عند بعض المحدثين وهو « الارقان » عند الاقدمين من اجدادنا Feu follet

فلقد صدق اذا الكاتب لان الحضوض هو اسم الاله الذي قد وكل بالنار وبكل مكان يكون مهلكة للرجل . وحضوضى التي بين الازرق والقريات هي المطلوبة . فلله در محققنا !

ومما يزيدنا تمسكا برأي صاحبنا العزيز، واعتقادا بصحة ما ذهب اليه،

ان عندنا نسخة قديمة من قاموس المجد الفيروزابادي خطت في سنة ٩٤١هـ وقد فتحنا فيها مادة حضرض لنرى ماجاء فيها من الاختلاف عن سائر النسخ المطبوعة او المخطوطة فرأيناه يقول : « حضوضى : جبل في البحر او جزيرة في السند . وعلم للنار » اه .

قلنا : السند هنا وزان سبب وهو في لسان اهل بادية الشام المعاصرين كل ماحاذى ضفة الفرات اليمنى ممتدا في جزيرة العرب ومتصلا بسورية وفلسطين .

فاذا كان هذا هو المعنى المرادهنا من «السند» الواردة في هذه النسخة من القاموس ، كان تأويل « مخلصنا » من احسن ما جاء موافقا لهذا التعبير ، ونحن لم نجد احدا من ذهب الى هذا الرأي الناطق بالحق ، من الاقدمين ولا من المعاصرين . ولابد من ان يتأثر كل من يحاول ان يكتب في هذا الموضوع ويتوخى صدق الرواية ودقة التحقيق .

ومن غريب الاتفاق ان ملوك العراق في عهد الجاهلية — وكانوا يومئذ فرسا — اذا ارادوا نفي واحد من العراق ، نفوه الى مدينة في البطائح عمقة سيئة الهواء كثيرة الرطوبة شديدة الحميات كانها نسخة ثانية من حضوضى وكان اسمها «الهفة» والطبري يذكرها باسم طرنايا . اما النبط فكانوا يسمونها (هفاطرنايا) ودونك ما قيل عنها :

الهفة او طرنايا

قال ياقوت في معجمه : « الهفة [وزان شدة] مدينة قديمة كانت في طرف السواد بناها سابور ذو الاكتاف ، واسكنها ايادا لما قتل من قتل منهم في مدينة شالها لما عصوا عليه ، ونقل من بقي منهم الى هذه المدينة وجعلها محبسا لهم ونهى الرعية عن مخالطتهم ، وامر ان لاتدخل العرب داخل الحصن . فمن دخل بغير اذنه قتل ، وكان كل من سخطت عليه ملوك فارس نفته الى « الهفة » ووسمها بالنفي واللعن . وكان النبط يسمونها « هفا طرنايا » وآثار سورها بينة لم تندرس » اه كلام ياقوت

قلنا : ويؤخذ من كلام الطبري في تاريخه انها كانت في ارض جرجرايا في رقعة البطائح واغلب بلدان البطائح — حتى عهدنا هذا — من اسوأ البلاد مقاما

وهواء. ومعنى (هفا) بالنبطية ـ والنبطية هي اللغة الصابئية التي هي فرع من اللغة الارمية واصحابها يفرون من حروف الحلق اذ ليس في لسانهم حاء ولا عين بل هاء وهمزة ـ المحتجبة [عن الانظار لكثرة ما فيها من الشجر والدغل] ومعنى طرنايا الرطبة فيكون محصل مجموعها : المدينة المحتجبة بالدغل الرطبة الهواء . قلنا وما كان كذلك من البلاد والمدن لا يكون إلا مهلكة لسكانها .

ومن غريب الامر ان بعض البغداديين في عصرنا هذا اذا ارادوا ان يدعوا على احد من باب المدح او القدح قالوا . « يامال الهفا » اي من انت جدير لان تكون من اهل الهفة .

اما موقع الهفة اليوم فلا نعرفه فلعل احد ادباء البطائح يفيدنا عنه بشيء .

واذ قد وقع الحديث عن منفيين للعرب في عهد الجاهلية فلا باس من ذكر منفاهم في ايام احتلال الانكليز للعراق فانهم كانوا ينفون الوطني الحر المدافع عن ديارة الى هنكام .

هنكام

والمعاصرون يقولون ايضا هنجام هي حقيقة باب جهنم على ما وصفها من نفي اليها . وقد قال ياقوت عنها : هنكام بالفتح اسم لجزيرة في بحر فارس قريبة من كيش ولم يزد على هذا القدر .

مع انها حارة صيف شتاء شديدة الحرارة رطبتها . كثيرة الدويبات والهوام ولا سيما السامة منها . قليلة الخيرات وافرة النقمات واللعنات الى آخر ماتريد ان تصفها بمثل هذا المعنى : فالمنفي اليها العائد منها مولود ثانية في العالم، والعائش فيها يهون عليه بعد هذا ان يعيش في نار جهنم ، وكفى لها وصفا .

﴿ أيقال زحف الجيش على العدو ﴾

لا تطالع سطورا تذكر الزحف الا تسمع صاحبها يقول : وزحف الجيش « على » العدو . ولا تكاد ترى كاتبا فصيحا سوريا او مصريا او عراقيا يخرج عن دائرة هذا الخطأ ، مع ان الصواب هو زحف « الى » العدو ونص اللغويين صريح : قال في اللسان : الزحف : الجماعة يزحفون « الى » العدو بمرة اما زحف الولد فقد يكون « على » اليدين او الرجلين قال الازهري : اصل الزحف الصبي : وهو ان يزحف « على » استه اه . وبعد هذا القدر كفاية .